الفضاء المكاني والثقافي في شعر الكميت بن زيد الأسدي: جدلية التلقي والأسلوب الشعري في العصر الأموي

الأستاذ المساعد الدكتور بهجت مهجر حبش الطعمة
الجامعة التقنية الجنوبية

المستخلص

يمثل شعر الكميت بن زيد الأسدي (ت ٦٠هـ - ١٢٦هـ) أحد أبرز النصوص الشعرية في العصر الأموي، لاحتوائه على مضامين سياسية واجتماعية ودينية متجذرة في السياق التاريخي والثقافي لعصره، ورغم الاهتمام الكبير الذي حظي به هذا الشعر في الدراسات السابقة، إلا إن أغلب هذه الدراسات اقتصرت على التحليل البلاغي أو دراسة الخطاب السياسي المباشر، متجاهلة البعد المكاني والثقافي الذي أسهم في صياغة النصوص وتوجيه تلقيها لدى الجمهور.

ينطلق البحث من فرضية مفادها أنّ النص الشعري لا يُفهم بمعزل عن الفضاء الذي نشأ فيه وعن الثقافة المحلية المحيطة بجمهور المتلقين، ويعتمد مقاربة جغرافية–ثقافية تجمع بين النقد الأدبي والتحليل المكاني للمدن والمناطق التي عاش فيها شعر الكميت أو انتشر فيها، مثل الكوفة والبصرة والحجاز والشام. وتستند المقاربة إلى تحليل الخصائص الاجتماعية والسياسية والثقافية لكل بيئة، ودراسة أثر العادات والمعتقدات والانتماءات القبلية والسياسية في تفسير الرموز والنصوص، مع الربط بين هذه العوامل وطبيعة التلقي الشعري.

ويبرز البحث العلاقة الجدلية بين المكان والمعنى الشعري، مبينًا كيف أسهم الفضاء الجغرافي والثقافي في تشكيل الصور والرموز البلاغية، وفي توجيه فهم الجمهور وتفسيره للنصوص، مؤكدًا أنّ شعر الكميت لا يمثل خطابًا سياسيًا أو بلاغيًا فحسب، بل وثيقة ثقافية حيّة تعكس التفاعل بين النص والبيئة الثقافية والمكانية، وتوضح الدور الحاسم لهذه البيئة في بلورة المعنى الشعري وأساليبه في العصر الأموي، ما يسدّ فجوة واضحة في الأدبيات السابقة ويقدم قراءة متعددة الأبعاد للنصوص الشعرية الإسلامية المبكرة.

الكلمات المفتاحية: الشعر الأموي، البعد المكاني، الثقافة المحلية، التلقي والاسلوب الشعري.

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٥/٠٩/٢٩ **تاريخ القبول:** ٢٠٢٥/١١/٢٦

Spatial and Cultural Space in the Poetry of al-Kumayt ibn Zayd al-Asadi:The Dialectic of Reception and Poetic Style in the Umayyad Era

Assistant Professor Dr. Bahjat Muhjir Habash al-Tu‘mah
Southern Technical University

Abstract

The poetry of al-Kumayt ibn Zayd al-Asadi (60–126 AH) represents one of the most prominent poetic corpora of the Umayyad period, as it embodies political, social, and religious themes deeply rooted in the historical and cultural context of its time. Despite the considerable attention this body of poetry has received in previous scholarship, most studies have been limited to rhetorical analysis or the examination of overt political discourse, often overlooking the spatial and cultural dimensions that contributed to the formation of these texts and shaped their reception among audiences.

This study is based on the premise that poetic texts cannot be fully understood in isolation from the spatial environments in which they emerged or from the local cultures surrounding their audiences. It adopts a geo-cultural approach that integrates literary criticism with spatial analysis of the cities and regions in which al-Kumayt lived or where his poetry circulated, such as Kufa, Basra, the Hijaz, and the Levant. This approach involves analyzing the social, political, and cultural characteristics of each environment, as well as examining the influence of customs, beliefs, and tribal and political affiliations on the interpretation of symbols and texts, while linking these factors to patterns of poetic reception.

The study highlights the dialectical relationship between place and poetic meaning, demonstrating how geographical and cultural spaces contributed to shaping imagery and rhetorical symbols, as well as guiding audience interpretation. It argues that al-Kumayt’s poetry should not be viewed merely as political or rhetorical discourse, but rather as a living cultural document that reflects the interaction between text and its spatial and cultural environments. In doing so, the study underscores the decisive role of these environments in the formation of poetic meaning and style in the Umayyad period, thereby addressing a clear gap in previous scholarship and offering a multidimensional reading of early Islamic poetic texts.

Keywords: Umayyad poetry, spatial dimension, local culture, reception, poetic style.

Received: 29/09/2025 **Accepted: 26/11/2025**

المقدمة

يمثل شعر الكميت بن زيد الأسدي (٦٠هـ- ١٢٦هـ) أحد أبرز النصوص الشعرية في العصر الأموي، لما ينطوي عليه من مضامين سياسية واجتماعية ودينية ترتبط بالسياق التاريخي والثقافي لعصره، غير أنّ أغلب الدراسات التي تناولته انحصرت في تحليل البناء البلاغي أو الخطاب السياسي المباشر، دون التعمق في البعد المكاني والثقافي الذي أسهم في صياغة النصوص[١]، وفي تشكيل طرائق تلقيها لدى الجماهير. وانطلاقًا من هذه الملحوظة، يسعى هذا البحث إلى دراسة شعر الكميت من منظور جغرافي–ثقافي، يقوم على فرضية أنّ النص الشعري لا يمكن أن يُفهم بمعزل عن الفضاء الذي نشأ فيه، ولا عن الثقافة المحلية التي أحاطت بجمهور المتلقين.

تتحدد أهداف البحث في تحليل الفضاء المكاني للشاعر، من خلال دراسة المدن والمناطق التي عاش فيها أو انتشر فيها شعره، مثل الكوفة والبصرة والحجاز والشام، مع إبراز خصائصها الاجتماعية والسياسية والثقافية، كما يركز على بيان أثر العادات والمعتقدات والانتماءات القبلية والسياسية للجمهور في فهم النصوص وتفسير رموزها، مبرزًا كيف ساهمت هذه الثقافة المحلية في تشكيل أسلوب الكميت الفني، وفي توجيه رسائله الدينية والسياسية، ويتضمن البحث كذلك الكشف عن العلاقة بين المكان والمعنى الشعري، إذ أسهم الفضاء المكاني في تحديد الرموز والصور البلاغية، كما انعكس على طبيعة التلقي والوعي الجماعي.

تنطلق مشكلة البحث من ملاحظة أنّ الدراسات السابقة، على كثرتها، لم تُعالج بصورة موسعة العلاقة بين البيئة المكانية والثقافية لشعر الكميت وبين تلقيه من قبل الجمهور، إذ بقي التركيز منصبًا على التحليل النصي الداخلي أو على الدور السياسي للشاعر، ومن هنا يطرح البحث السؤال المركزي: كيف أثر الفضاء المكاني والثقافي في العصر الأموي على تشكيل مضامين شعر الكميت وأساليبه، وفي اختلاف تلقي نصوصه بين المناطق المختلفة؟

بهذا التصور يسعى البحث إلى سد فجوة واضحة في الأدبيات السابقة، مقدّمًا مقاربة جديدة تُظهر شعر الكميت في ضوء التفاعل الجدلي بين النص والفضاء الثقافي والجغرافي، ومن خلال ذلك يظهر أنّ شعر الكميت ليس مجرّد خطاب سياسي أو بلاغي، بل وثيقة ثقافية حيّة تكشف عن دور المكان والثقافة في تشكيل المعنى الشعري، وفي توجيه مسارات التلقي ضمن المجتمع الإسلامي المبكر.

أولا-التمهيد: الإطار النظري والمنهجي

-تعريف المنهج وأهميته في الدراسات الأدبية

يُعدّ اختيار المنهج خطوة محورية في أي بحث أدبي، إذ يحدد زاوية النظر ويوجه آليات التحليل نحو تحقيق الأهداف المرجوة، وقد تجاوزت الدراسات الأدبية الحديثة حدود التحليل الجمالي الصرف، لتتجه إلى مناهج أكثر شمولية تستفيد من

العلوم الاجتماعية والإنسانية لفهم علاقة النص بالفضاء الذي وُلد فيه والجمهور الذي استقبله، والنص الأدبي ليس تعبيرًا فرديًا خالصًا، بل هو انعكاس لبنية اجتماعية وثقافية أوسع تتجسد في اللغة والصورة الشعرية، فهو مرتبط "بالبنى الفكرية الموجودة خارجه، أي تفسير هذا العمل وإدراكه وظيفته ضمن الحياة الثقافية في الوسط الاجتماعي"[٢]، إذ لا يمكن "الفصل بين البعد الجماعي (الطبقة الاجتماعية) والبعد الفردي داخل العمل الفني"[٣].

يعد المكان من "أشد العناصر ارتباطا بالنشاط الإنساني الجمعي، إذ لا يمكن تصور مكان منعزل عن ثقافات الإنسان ونشاطه الفكري وتجاربه"[٤]، وقد أكدت الدراسات الثقافية والجغرافية الحديثة على مركزية المكان في تشكيل المعنى، بحيث لم يعد فضاءً محايدًا، بل غدا عنصرًا فاعلًا في إنتاج الدلالة، إذ يمثل المكان "الكيان الذي يحتوي خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه"[٥]، وعلاقة الإنسان بالمكان "علاقة تأثير متبادل، فالإنسان يمارس فاعليته في المكان، بل ويغير من طبيعته في كثير من الأحيان، ثم يعود المكان فيمارس تأثيره على الإنسان في دورة لا تنتهي من التأثير المتبادل"[٦]، من هنا يصبح مكان النتاج الأدبي هوية تاريخية ووطنية، يحمل طموحات الأديب الثقافية، ويجعل الأديب أمام اختبار ثقافي مع العصر، يتحول معها فعل الأديب في المكان إلى فعل في البحث عن الشخصية المتطلعة على الواقع[٧].

وانطلاقًا من هذه الخلفية، تقوم مقاربة البحث على توظيف المنهج الثقافي والمنهج الأسلوبي في إطار نقدي يجمع بين تحليل البنية الأدبية وتمثّلات المكان في بعدها الجغرافي والثقافي، ويُبنى هذا التصور المنهجي على ثلاثة مستويات مترابطة: أولا: البعد المكاني، من خلال تحليل أثر البيئات المكانية التي تفاعل معها الشاعر أو وصل إليها شعره، في تشكيل الصور والرموز الشعرية وبناء دلالاتها. ثانيا: البعد الثقافي، ويتعلق بتحليل الممارسات والعادات والرموز الدينية والاجتماعية السائدة في تلك البيئات وانعكاسها في النصوص. ثالثا: بعد التلقي والأسلوب الشعري، أي تحليل كيفية استقبال الجماهير للنصوص، واختلاف تفسيرها تبعًا لاختلاف البيئات الجغرافية والثقافية.

وتتمثل أهمية هذه المقاربة في عدة نقاط أساسية، أهمها: أنها تُتيح فهم النص في سياقه المكاني والثقافي، فالتحليل الأدبي التقليدي يركز غالبًا على الأسلوب أو الشكل أو البنية اللغوية، بينما هذه المقاربة تُضيف بعدًا جديدًا من خلال دراسة تأثير المدن أو المناطق التي عاش فيها الشاعر أو انتشر فيها النص على محتواه ومعانيه الرمزية، وأيضا تساعد هذه المقاربة على تحليل تلقي النصوص بين جمهور متنوع، إذ يختلف فهمهم للرموز والمعاني بحسب خلفياتهم الثقافية والاجتماعية، على سبيل المثال، الشعراء الذين عاشوا في العصر الأموي، (كالكميت بن زيد الأسدي) كانوا يتفاعلون مع بيئات مختلفة، مثل الكوفة والبصرة والشام والحجاز، وكانت الخصائص الثقافية والسياسية لكل منطقة تؤثر على كيفية استقبال الجمهور لنصوصهم، كما توفر هذه المقاربة رؤية متعددة الطبقات للنصوص الأدبية، تربط بين المكان والثقافة والأسلوب الفني، ومن خلال هذه الشبكة التفاعلية، يمكن تفسير الرموز والأفكار بشكل أعمق، وفهم النصوص بوصفها وثائق ثقافية حية تتغير مع اختلاف البيئة المكانية والثقافية، إذ أصبح النص الشعري أو السردي أداة لفهم التحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية في فترات معينة، لا مجرد نصوص جمالية أو خطاب سياسي منفصل. وأخيرا، تسهم هذه المقاربة في توسيع آفاق

دراسة الشعر الإسلامي في مرحلته الأولى، إذ يظل شعر الكميت نموذجًا يكشف أن المضامين الدينية والسياسية والأخلاقية لا تُفهم إلا في ضوء السياق الثقافي والجغرافي الذي شكّل صوره وأساليبه ورموزه البلاغية.

ثانيا: السياق الثقافي في شعر الكميت

أ-الأماكن التي نُظِم فيها شعر الكميت أو وصل إليها في العصر الأموي

يُظهر تتبّع مسيرة الكميت بن زيد الأسدي أنّ انتشار شعره لم يكن مقتصرًا على مكان نشأته، بل تجاوزه إلى فضاءات أوسع في العالم الإسلامي خلال القرنين الأول والثاني الهجريين، فقد تسللت قصائده إلى بيئات متعددة عبر قنوات الرواية والحفظ والتداول في المجالس الأدبية والعلمية، وهو ما يعكس مكانته بين معاصريه، وحرص الرواة على نقله وتدوينه،[٨] كما أن تفاعل الناس مع شعره، سواء أكان ذلك في المراكز الحضرية أم في الأوساط القبلية، يشير إلى أنّ حضوره لم يكن أدبيًا محضًا، بل مثّل خطابًا مؤثرًا في الوعي الجمعي، لاسيما بما تضمنه من مضامين فكرية وسياسية،[٩] ومن هنا، فإن دراسة جغرافية حضور شعر الكميت لا تكشف فقط عن نطاق انتشاره، بل تبرز أيضًا دوره في صياغة خطاب ثقافي عابر للأقاليم، يعبّر عن طبيعة العصر الأموي وصراع تياراته الفكرية والسياسية.

١-الكوفة موطن الكميت ومركز نشاطه

وُلد الكميت بن زيد الأسدي في الكوفة سنة ٦٠هـ، واستمر معظم حياته مقيمًا فيها، مما جعل هذه المدينة تمثل الإطار المكاني والثقافي الأبرز في مسيرته الشعرية والفكرية، فقد كانت الكوفة آنذاك إحدى أهم الحواضر الإسلامية، بما ضمّته من مدارس علمية وفقهية، وحلقات أدبية ولغوية، فضلاً عن كونها ساحة رئيسة للتجاذبات السياسية والفكرية بين مختلف التيارات، وفي مقدمتها التيار الشيعي، وفي هذه البيئة النشطة نشأ الكميت في قبيلة أسد بن خزيمة، وتربى على قيم الفروسية والفصاحة، فجمع بين القوة البدنية والمهارة البلاغية، وقد أسهم انخراطه في المجالس العلمية والأدبية بالكوفة في صقل موهبته الشعرية، حتى عُدّ من أبرز فصحاء أهلها وشعرائها[١٠].

ولم تكن الكوفة موطن للكميت فحسب، بل كانت مركزًا رئيسًا لنشاطه الشعري والسياسي، إذ وجد فيها حاضنة طبيعية لفكره وتوجهه، لاسيما أنها مثّلت معقل التشيع لآل البيت (عليهم السلام)، وقد انعكس هذا المناخ في قصائده الشهيرة، وفي مقدمتها الهاشميات، التي عبّر من خلالها عن انحيازه السياسي والفكري، وواجه بها خصومه من الأمويين وغيرهم، وبذلك يمكن القول إن الكوفة لم تكن مكان للنشأة فحسب، بل كانت فضاءً شاملاً أسهم في تشكيل شخصيته الفكرية والأدبية[١١]، ومن خلالها تبلور موقعه المتميّز في تاريخ الشعر الأموي بوصفه شاعر موقف ورؤية، لا شاعر تقليدي يعيش على هامش عصره.

٢-البصرة وحضور شعر الكميت فيها

لم يرد في المصادر ما يدل على أن الكميت بن زيد الأسدي قد أقام إقامة طويلة في البصرة، غير أنّ حضور هذه المدينة في مسيرته الفكرية والأدبية يبدو جليًا من خلال ما وصلنا من أخبار وآثار، فقد تأثر الكميت بالبيئة الثقافية البصرية، ولا سيما بالتيارات الكلامية والفكرية التي ازدهرت فيها، إذ نسبه بعض الدارسين إلى الاعتزال، أو إلى التأثر بمقولاته الأولى[١٢]، وهو ما يعكس تفاعله مع الجو الفكري الذي عُرفت به البصرة في القرنين الأول والثاني الهجريين، كما أنّ شعره بلغ البصرة عن طريق الرواة والمهتمين بالأدب، فالبصرة كانت آنذاك حاضرة علمية كبرى، تتفوّق على الكوفة في مجال النحو واللغة والبيان، وقد شكّلت مركزًا مهمًا لحركة النقد والتدقيق والتحليل الأدبي، وممّا يعزز حضور شعر الكميت فيها أنّ عددًا من الرواة والعلماء البصريين قد اشتغلوا بجمع أشعاره وروايتها، مما أتاح لنتاجه الشعري أن يُتداول في حلقات العلم والأدب، وأن يحظى بانتشار واسع في حياته، وبذلك يمكن القول إن البصرة لم تكن محطة جغرافية عابرة في مسار الكميت، بل مثلت فضاءً علميًا وفكريًا أسهم في تشكيل أبعاد شخصيته الثقافية، وفي ترسيخ مكانته ضمن الخريطة الأدبية والفكرية للعصر الأموي.

٣-الشام وعلاقته بالسلطة الأموية

ارتبطت علاقة الكميت بن زيد الأسدي بالشام ارتباطًا وثيقًا، إذ كانت دمشق آنذاك مركز الحكم الأموي ومقر الخلافة، ما جعلها وجهة رئيسية في مساره الشعري والسياسي، فقد مدح بعض خلفاء بني أمية، مثل يزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك، مقدّمًا من خلال شعره صورةً عن التفاعل بين الشاعر والسلطة.[١٣] ومع أن إقامته الأساسية كانت في الكوفة، وهي بيئة ذات نزعة معارضة للسلطة الأموية، فإنّه كان يحرص على التردد إلى الشام بصورة متكررة، طلبًا للصفح والعفو عمّا نطق به أو نُسب إليه من مواقف سياسية، كما أن حضور قصائده في الشام لم يقتصر على بلاط الخلفاء والأمراء، بل تجاوز ذلك إلى الناس عامة، حيث تناقلوا أشعاره وأُعجبوا بما امتازت به من جزالة الألفاظ وعمق المعاني[١٤]، من هنا شكّل الشام فضاءً مهمًا في حياة الكميت، ليس بوصفه مكانًا جغرافيًا فحسب، بل بوصفه ساحةً أساسية لتداول شعره وتشكيل صورته الأدبية والسياسية في آنٍ واحد.

٤-الحجاز ومجالس مكة والمدينة

تُفيد المصادر التاريخية والأدبية بأن شعر الكميت بن زيد الأسدي وجد طريقه إلى الحجاز، لاسيما مكة المكرمة والمدينة المنورة، حيث كان موضع اهتمام خاص من أنصار آل بيت النبوة (عليهم السلام)، فقد ارتبط الكميت بالحجاز من خلال رحلاته المتكررة لأداء مناسك الحج، ومن خلال لقاءاته المباشرة بأئمة آل البيت، إذ تذكر بعض الروايات أنه أنشد قصائده، ولاسيما الهاشميات، في حضرة الإمام محمد الباقر بن علي بن الحسين[١٥]، كما حضر لاحقًا مجالس الإمام جعفر الصادق (عليهما السلام)، وهو ما يعكس البعد العقائدي والسياسي في شعره.

ولم يكن تداول شعر الكميت في الحجاز نشاط أدبي فحسب، بل كان له بعدا رمزيا وفكريا عميقا؛ فمكة والمدينة لم تكونا فقط موضعًا للشعائر الدينية، بل مثلتا فضاءً ثقافيًا وفكريًا مفتوحًا تتلاقى فيه وفود المسلمين من مختلف الأمصار، الأمر الذي أتاح لشعر الكميت أن ينتشر على نطاق أوسع عبر الرواة والحجاج الوافدين، كما أن إنشاده القصائد في تلك المجالس يعكس جرأته في التعبير عن مواقفه الموالية لآل البيت في قلب الجزيرة العربية، بما تمثله من رمزية دينية وسياسية، ومن هنا، يمكن القول إن حضور شعر الكميت في الحجاز لم يكن امتدادًا جغرافيًا فحسب، بل شكّل أيضًا بُعدًا استراتيجيًا في مشروعه الشعري، إذ منح خطابه بعدًا يتجاوز حدود العراق ليصل إلى أقدس البقاع الإسلامية، حيث يتضاعف تأثير الكلمة وقيمة الموقف[١٦].

٥-انتشار شعره في الأمصار الأخرى

انتشر شعر الكميت بن زيد الأسدي في الأمصار الإسلامية الأخرى انتشارًا واسعًا، إلا أن هذا الانتشار لم يصل إلى الدرجة التي بلَغها في المراكز الحضارية الكبرى، وهي الكوفة والبصرة والشام والحجاز، ولم يكن مردّ هذا الانتشار حضوره الجسدي المباشر بقدر ما كان ثمرةً لقوة الحفظ ودقة الرواية، إلى جانب ما امتاز به من براعة شعرية مكّنته من لفت أنظار الرواة والمتلقين على حد سواء، فقد عُرف الكميت بكونه مُعلّمًا لبعض التلاميذ[١٧]، الذين قاموا بجمع شعره وروايته، الأمر الذي أسهم في تثبيت حضوره ضمن حركة التدوين المبكر للشعر، وكان إنشاده لقصائده في الكوفة يشكّل منطلقًا أساسًا لانتشارها، إذ سرعان ما تنتقل بالرواية الشفوية إلى مختلف الأمصار الإسلامية، مثل مصر، وخراسان، واليمن، ... وغيرها، حيث كان الرواة والحجاج والتجار يشكّلون قنوات طبيعية لتداول النصوص الأدبية.

وإذا كان وجود الكميت المباشر في هذه الأمصار غير مؤكد تاريخيًا كما ذكرنا، فإن الثابت من خلال كتب الأدب واللغة والرواية أنّ شعره بلغها في عصر بني أمية، وأضحى مادة متداولة في مجالس العلم واللغة، بل وأداةً للتأثير السياسي والفكري في بعض البيئات التي عُرفت بتباين مواقفها من السلطة الأموية، وبهذا يمكن القول إن انتشار شعر الكميت لم يكن انتقال نصوص شعرية من مكان إلى آخر فحسب، بل كان ظاهرة ثقافية تعكس طبيعة الحياة الأدبية في القرنين الأول والثاني الهجريين، إذ امتزج الشعر بالجدل الأدبي والسياسي والمذهبي، وتحوّل من فن تعبيري محلي إلى خطاب ثقافي عابر للأقاليم[١٨]. يتضح مما سبق أن الكميت بن زيد عاش معظم حياته في الكوفة، ومنها انطلق شعره إلى مختلف الحواضر الإسلامية، وأهمها: البصرة، والشام، والحجاز، وقد كان انتشار شعره أوسع من تنقله الشخصي، إذ بلغ صيته الأمصار بفضل الرواة والمهتمين بالأدب، وبذلك يُعَدّ الكميت أنموذجًا للشاعر الذي تبلورت تجربته في فضاء ثقافي محدد (الكوفة)، غير أنّ شعره تجاوز حدود هذا المركز المحلي ليُستقبل في بيئات متعددة من العالم الإسلامي، مما أكسب تجربته بعدًا تواصليًا واسعًا وجعل أثره يتجاوز الإطار المكاني إلى الحقلين الأدبي والسياسي معًا.

ب-الخصائص الجغرافية والاجتماعية لهذه الأماكن

لا يمكن الإحاطة بالتجربة الشعرية للكميت بن زيد الأسدي من دون استحضار الأبعاد الجغرافية والاجتماعية للأمكنة التي نشأ فيها أو امتد إليها صدى شعره، فهذه الأمكنة لم تكن مجرد فضاءات مكانية محايدة، بل شكلت حواضن سياسية وثقافية أسهمت بصورة مباشرة في صياغة تجربته الشعرية والفكرية، وقد أملت الخصوصية الاجتماعية لكل مدينة – من حيث تنوّعها السكاني، وموقعها الجغرافي، وطبيعة مجالسها العلمية والأدبية – في رسم ملامح شخصيته الأدبية، وأثرت في موضوعاته التي تراوحت بين المدح والهجاء، وبين الانحياز السياسي والموقف العقائدي، كما أن هذه البيئات ساعدته على بلورة أسلوبه الشعري المتميز بجزالة اللفظ وحرارة العاطفة، وأتاحت له قدرًا من الجرأة في التعبير عن مواقفه، سواء أكان ذلك في مواجهة السلطة أم في الانتصار لقضيته العقائدية، ومن ثم فإن دراسة التجربة الشعرية للكميت لا تكتمل إلا من خلال قراءة معمّقة في خصائص البيئات التي ارتبط بها، بوصفها الإطار الذي تفاعل معه الشاعر وأنتج في ظله نصوصه التي ما زالت تمثل شهادة أدبية على صراعات العصر الأموي وتحولاته.

١-الكوفة – بيئة التنوع والتشيع

تُعدّ الكوفة إحدى أهم الحواضر الإسلامية التي نشأت بعد الفتح، إذ تمصّرت في خلافة عمر بن الخطاب سنة ١٧هـ تقريبًا، بعد تمصير البصرة بمدة وجيزة[١٩]، وقد أُنشئت على ضفاف نهر الفرات في موقع محوري قريب من الحيرة، عاصمة المناذرة سابقًا، مما منحها بُعدًا حضاريًا وثقافيًا وموروثًا من التجربة العربية – الفارسية السابقة للإسلام،[٢٠] ، إلى جانب ظروف التمصير، أسهم هذا الموقع في تشكيل نسيج سكاني متنوّع، حيث استوطنتها قبائل عربية متعددة من اليمنيين والقيسيين وتميم... وغيرهم، كما عاش فيها عدد كبير من الموالي والفرس، الأمر الذي جعلها مدينة شديدة الحيوية من حيث التفاعل الاجتماعي والفكري.

ولم يقتصر أثر الكوفة على تنوّعها السكاني، بل برزت أيضًا بوصفها مركزًا علميًا وثقافيًا ذا تأثير واسع في العصر الأموي، فقد نشطت فيها حلقات القرآن واللغة والنحو والفقه، وتجلّت فيها بدايات المدارس الكلامية والفكرية، كما شكّل حضورها السياسي علامة فارقة، إذ ارتبط اسمها بالتشيع لآل البيت (عليهم السلام) منذ استشهاد الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) واستقرار ولده الحسن فيها، وقد جعل هذا المناخ الكوفة ساحة خصبة للشعر السياسي الذي يجاهر بمناصرته لآل البيت في مواجهة الحكم الأموي، وهو ما انعكس مباشرة في تجربة الكميت بن زيد، الذي وجد فيها بيئة حاضنة لجرأته الشعرية ولسياساته المذهبية.

وهكذا لم تكن الكوفة مجرد مسقط رأس للكميت، بل مثلت الإطار الاجتماعي والسياسي الذي بلور رؤيته الشعرية، فوفّرت له مجالس أدبية وعلمية تُعنى باللغة والفصاحة، إلى جانب فضاء سياسي يتيح التعبير عن موقفه المؤيد لآل بيت النبوة، ولذلك يمكن القول إن خصوصية شعر الكميت لا تُفهم إلا في ضوء هذه الخصائص الجغرافية والاجتماعية التي

جعلت الكوفة مدينة صراع فكري وسياسي، ومختبرًا للتجارب الشعرية ذات الطابع الرسالي.

٢-البصرة – حاضرة العلم واللغة

أُنشئت البصرة سنة ١٤هـ بوصفها مصرا عسكريا، غير أنّها سرعان ما تحوّلت إلى مركز حضاري وثقافي مهم في العراق، نظرًا لموقعها الحيوي وقربها من الخليج[٢١]، ما جعلها نقطة التقاء تجارية وثقافية بين العراق وبلاد فارس والهند، وقد أسهم هذا الموقع في تنوّع سكانها من عرب وموالي وجعلها بيئة متعددة الثقافات، ما أضفى عليها طابعًا اجتماعيًا غنيًا ومتنوعًا، أما على المستوى الثقافي، فقد ضمت البصرة كبار العلماء واللغويين والنحاة، مثل أبي الأسود الدؤلي، والأصمعي، وأبي عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد الفراهيدي ... وغيرهم، فضلاً عن وجود مجالس أدبية ونقدية مزدهرة، مما جعلها مركزًا متقدمًا في اللغة والنحو والفصاحة، وقد وفّر هذا الجو الثقافي خصائص مهمة ساعدت على تداول شعر الكميت بن زيد الأسدي، سواء أكان ذلك عبر الرواة أم النقاد، إذ وجدت قصائده صدى واسعًا لدى الأوساط المثقفة، وتم تدقيقها ومناقشتها في حلقات البلاغة والبيان[٢٢]، ومن هنا يمكن وصف البصرة بأنها بيئة مؤثرة في تشكيل الذوق الأدبي والنقدي للكميت، وأحد الفضاءات التي مكّنت شعره من الانتشار خارج إطار العراق، ليصل إلى الأمصار الإسلامية الأخرى.

٣-الشام – مركز الحكم الأموي

تميزت الشام، وعلى رأسها دمشق، مركز الحكم الأموي وعاصمة الدولة، بموقعها الجغرافي المهم على مفترق طرق التجارة بين الجزيرة العربية والبحر المتوسط، مما منحها ثراءً اقتصاديًا وثقافيًا كبيرًا، وأسهم في ازدهار المدن والقرى المحيطة بها[٢٣]، أما على الصعيد الاجتماعي، فقد ارتبطت الشام ارتباطًا وثيقًا بالسلطة الأموية، فكانت حاضنة للشعر الرسمي المادح للخلفاء والأمراء، وللمجالس التي جمعت شعراء البلاط والنخبة الحاكمة[٢٤]. لكن وصول شعر الكميت بن زيد الأسدي إلى الشام جاء من زاوية مختلفة، إذ حمّل نصوصه أحيانًا مضامين نقدية وسياسية متوائمة مع مواقف معارضة للسياسات الأموية، مما وضعه في فضاء حساس سياسيًا وثقافيًا، وقد أسهمت شبكة الرواة والناقلين القادمين من العراق في انتشار شعر الكميت خارج الكوفة ووصوله إلى دمشق، غير أنّ هذا الانتشار لم يكن معزولًا عن نشاط الشاعر نفسه؛ إذ تشير الروايات إلى أنّ الكميت شدّ الرحال إلى الشام، واتصل ببعض خلفاء بني أمية وأمرائهم، فأنشدهم شعره ومدحهم في مواطن مختلفة، وقد هيّأت له هذه الرحلات، إلى جانب دور الرواة، فرصةً مباشرة لعرض شعره في مركز الحكم الأموي، حيث لقيت قصائده صدىً واسعًا لدى الخلفاء وطبقة البلاط، كما وجدت طريقها إلى العامة والفقهاء والمثقفين، لتصبح جزءًا من المشهد الثقافي والسياسي في دمشق[٢٥]، ومن ثم، لم يكن حضور شعر الكميت في الشام مجرد تداول أدبي، بل كان بمثابة مدخل للحوار السياسي والثقافي، يعكس قدرة الشعر على الانتقال من إطار محلي إلى فضاء سلطوي حساس، وتحويل التجربة الشعرية إلى أداة للتأثير الفكري والموقف السياسي في قلب الدولة الأموية.

٤-الحجاز – مهبط الوحي وموطن القداسة

يمثل الحجاز، ولاسيما مكة المكرمة والمدينة المنورة، نقطة استراتيجية محورية في الجزيرة العربية، لما يتمتع به من موقع جغرافي يربط بين شمال الجزيرة وجنوبها، ويجعلها ملتقى طرق الحجاج والتجار والمسافرين من مختلف الأمصار الإسلامية، هذا الموقع منح مكة والمدينة أهمية اقتصادية وثقافية كبيرة[٢٦]، إذ شكّلتا محور حركة الناس والسلع والمعرفة، وما إلى ذلك من انتقال للأفكار والنصوص الأدبية.

أما من الجانب الاجتماعي، فقد كانت مكة والمدينة مجتمعين متنوعين، يجمعان بين الحجاج الوافدين من شتى الأمصار والمسلمين المحليين، إضافة إلى العلماء وطلبة العلم والأنصار المؤيدين لآل البيت (عليهم السلام)، وقد أتاح هذا التنوع الاجتماعي فرصًا واسعة لتداول الشعر والأدب ونقل المعرفة، حيث كان الشعر يُستقبل ويُنقَل في مجالس الحج والتعليم، بعيدًا عن سلطة البلاط الأموي المباشرة[٢٧]، وبذلك أصبح الحجاز فضاءً اجتماعيًا وجغرافيًا فريدًا، يمكّن شاعرا مثل الكميت من إيصال نصوصه إلى جمهور واسع ومتنوع، مستفيدًا من مركزية المكان ودور الحجاج في الربط بين مختلف البيئات الإسلامية.

وهكذا تُظهر دراسة أماكن حياة الكميت بن زيد الأسدي وانتشار شعره أن الجانب الجغرافي والاجتماعي شكّلا العاملين الرئيسيين في تشكيل تجربته الشعرية، إذ وفرت الكوفة والبصرة بيئات لغوية وثقافية وسياسية غنية، بينما كانت الشام فضاءً سياسيًا حساسًا، ومكّن الحجاز بموقعه الاستراتيجي ومجتمعه المتنوع شعر الكميت من الوصول إلى جمهور واسع، فقد كان للموقع الجغرافي والتكوين الاجتماعي في المدن التي ارتبط بها الكميت أثرٌ متلازم في توجيه تجربته الشعرية وصياغة مضامينها، حتى غدت قصيدته انعكاسًا حيًّا لتنوّع البيئات الاجتماعية والثقافية والسياسية في القرنين الأول والثاني للهجرة.

ج-الثقافة المحلية وتأثيرها في فهم الشعر

ارتبط الشعر العربي في العصر الأموي ارتباطًا وثيقًا بالبيئة الثقافية والاجتماعية والسياسية السائدة آنذاك، ويتجلى هذا الارتباط بوضوح في تجربة الكميت بن زيد الأسدي، إذ عكَس شعره الظروف التي عاصرها وأثر البيئة التي نشأ فيها، فقد كانت الثقافة المحلية (بما تحمله من عادات ومعتقدات وانتماءات قبلية وسياسية) عاملاً مؤثراً في تشكيل الوعي الشعري، وفي تفسير معانيه ورموزه لدى المتلقين، ولذا فإن دراسة تأثير هذه الثقافة تُساعد كثيرا على فهم أعمق لشعر الكميت، ولشعر غيره من شعراء القرنين الأول والثاني الهجريين.

١-العادات الاجتماعية والمعتقدات المحلية

شكّلت العادات الاجتماعية والطقوس القبلية في مدن مثل، الكوفة والبصرة والشام والحجاز إطارًا مرجعيًا لفهم الشعر وتقييمه في العصر الأموي؛ إذ ارتبط تقويم النصوص بمدى صدقها في تجسيد القيم الاجتماعية السائدة، مثل المروءة، والشجاعة في ميدان الفروسية، والوفاء بالعهود... وغيرها. كما أسهم الفخر بالنسب والانتماء القبلي في إرساء معايير نقدية

واضحة، انعكست بصورة مباشرة في موضوعات الفخر القبلي والهجاء السياسي، بما يتناسب مع التوجهات الاجتماعية الخاصة بكل بيئة.

أما من الناحية الدينية، فقد شهدت البيئات المحلية في العصر الأموي تفاعلاً بين الموروثات الجاهلية والتعاليم الإسلامية الجديدة، مما أتاح للشعراء، ومن بينهم الكميت، مزج الاستشهاد بالآيات القرآنية والرموز الإسلامية مع عناصر الثقافة القبلية، وقد انعكس هذا المزج على موضوعات شعر الكميت، فاختلطت في نصوصه الشعرية الرموز الدينية مع التعبير عن الولاء الاجتماعي والاعتزاز بالنسب، وإن كان الأخير محدودًا في شعر الكميت مقارنة بالبعد الديني أو السياسي[٢٨]، كما أسهمت هذه الممارسة الشعرية في تمكين المتلقي من إدراك طبقات المعنى، وتقدير التداخل بين المضامين الأخلاقية والاجتماعية والدينية، الأمر الذي يجعل من دراسة الثقافة المحلية مدخلًا أساسًا لفهم شعر الكميت والكشف عن مقاصده.

٢- الأعراف القبلية والسياسية المحلية وتأثيرها في الشعر

لم تكن الثقافة المحلية في العصر الأموي محصورة بالعادات والمعتقدات فحسب، بل شملت أيضًا الأعراف السياسية والاجتماعية المرتبطة بالقبائل والحواضر، وهو عامل أساس في فهم شعر الكميت بن زيد الأسدي، إذ كانت القبيلة لا تزال تشكل أساس الانتماء الاجتماعي والسياسي، والكميت نفسه ينتمي إلى قبيلة أسد بن خزيمة، وقد ظهر هذا الانتماء في بعض مدائحه وفخره، وكثيرا ما وُصف بأنه "من شعراء مضر وألسنتها، والمتعصّبين على القحطانية"[٢٩]، غير أن الأهم كان ارتباطه السياسي بالتيار المؤيد لآل البيت، إذ كان معروفًا بالتشيع لبني هاشم، مما أعطى لشعره بعدًا سياسيًا ومذهبيًا واضحًا. وقد انعكس هذا الانتماء القبلي والسياسي على مضمون أشعاره، ولاسيما في الكوفة، التي كانت مركز المعارضة السياسية للأمويين، وبيئة خصبة للتعبير عن المواقف الموالية للعلويين، فكتب الكميت الهاشميات التي جسدت ولاءه لآل البيت، وجعلت من شعره وثيقة سياسية يُقرأ مضمونها في ضوء الصراع بين بني أمية وأنصار آل البيت (عليهم السلام)، وفي الوقت نفسه، تراعي أشعاره الأعراف المحلية في المجالس الأدبية والاجتماعية، حيث كان المستمعون قادرين على فهم الرموز والهجاء والمديح ضمن السياق القَبَلي والسياسي لكل بيئة، ما يعكس مدى ارتباط الشعر بالتركيبة الاجتماعية والسياسية المحلية.

٣-تفسير الرموز الشعرية

لم يكن المتلقي العربي في العصر الأموي يقرأ الشعر بوصفه مجرد إنتاج جمالي، بل كان يتعامل معه بوصفه خطابا اجتماعيا وسياسيا غنيا بالرموز والدلالات، تُفهم ضمن السياق المحلي والثقافي لكل بيئة، فقد اعتمد الكميت بن زيد الأسدي على الرموز القبلية، مثل الإشارة إلى النسب والجدود والبطون القبلية، بما يعكس الفخر والانتماء القبلي، وهو ما يثير حماسة المستمعين ويعزز شعورهم بالهوية الجماعية، وكانت هذه الرموز القبلية تتقاطع أحيانًا مع الرموز السياسية، حيث يكون الفخر بالنسب أو الانتصار للقبيلة مؤشرًا على مواقف سياسية ضمن الصراعات القائمة بين القبائل أو التيارات الموالية للحكم أو المعارضة له[٣٠].

كما وظف الكميت الرموز الدينية بوعي دقيق، لا سيما عند الإشارة إلى أسماء الصحابة وأئمة أهل البيت أو إلى أحداث محورية، مثل واقعة كربلاء التي كانت تحمل دلالات خاصة لدى الوسط الشيعي في الكوفة والحجاز، وقد سمحت هذه الرموز للمتلقين بفهم المواقف المذهبية للشاعر، وإدراك انحيازه السياسي والديني من خلال طبقات المعنى المخفية وراء النصوص.

أما الرموز السياسية، فهي أكثر وضوحًا في شعر الكميت، إذ يمثل ذكر الرسول (علية الصلاة والسلام) وبني هاشم وتفضيلهم على غيرهم إعلانًا مباشرًا للولاء السياسي داخل الكوفة، حيث تواجد أنصار آل البيت، بينما كان المتلقون في الشام –في ظل السلطة الأموية– يفسرونه بوصفه إشارة إلى المعارضة أو النقد الخفي للسلطة[٣١]، ومن هنا يظهر بوضوح أن الشعر العربي لم يكن مجرد فن، بل وسيلة معقدة للتواصل السياسي والاجتماعي، يعتمد على الرمز والدلالة والموقف، ويستدعي من المتلقي القدرة على قراءة النص وفق السياق القَبَلي والسياسي والديني المحيط به.

٤-المضامين الدينية والسياسية في فهم الشعر

ذكرنا سابقا أن الشعر في عصر بني أمية لم يكن مجرد تعبير فني أو وسيلة للتسلية، بل كان أداة ذات وظيفة مزدوجة تجمع بين البعد الديني والسياسي، وكان شعر الكميت بن زيد الأسدي نموذجًا واضحًا لهذه الوظيفة المركبة، فقد شكّل البعد الديني في شعره وسيلة لتعزيز الانتماء العقائدي لآل البيت، والدفاع عن مبادئهم ومواقفهم، وقد وظف في ذلك الاستشهاد بالقرآن والحديث[٣٢]، واستدعاء الرموز الدينية المألوفة للمتلقين، بما جعل نصوصه تحمل مشروعية دينية واضحة، وتُقرأ بوصفها خطابًا يربط بين الفعل الشعري والموقف العقائدي. أما البعد السياسي، فقد كان الشعر أداة للتأثير في الصراع بين التيارات السياسية القائمة في ذلك العصر، مثل الأمويين، والعلويين، والزبيريين، والخوارج، حيث أصبح كل بيت شعري قابلاً للقراءة السياسية بحسب موقع المتلقي وانتمائه، ومن هنا، اتسم شعر الكميت بالقدرة على إيصال مواقف سياسية دقيقة دون تصريح مباشر، إذ كان يشير إلى الولاء لآل البيت أو نقد السلطة الأموية عبر الرموز والتلميحات التي يفهمها المتلقون المطلعون على السياق الاجتماعي والسياسي. كما أن الجمع بين البعدين الديني والسياسي في شعر الكميت جعل النصوص الشعرية أدوات تثقيفية وتوجيهية، إذ لم تكن مجرد مرآة تعكس الواقع، بل كانت وسيلة لصياغة الوعي الجمعي وتوجيهه، والتأثير في القرارات الاجتماعية والسياسية للجمهور، وهكذا أصبح الشعر في هذا العصر خطابًا متعدد المستويات يُقرأ على نحو مختلف وفق المعرفة الثقافية والسياسية والدينية للمتلقي، ويعكس تفاعل الشاعر مع البيئة المحيطة به، وتوظيفه للغة والفنون الشعرية لخدمة غايات اجتماعية وسياسية محددة.

مما تقدم يتبين لنا أن الثقافة المحلية –بما تشتمل عليه من عادات ومعتقدات وانتماءات قبلية وسياسية– لم تكن مجرد خلفية لنتاج الكميت الشعري، بل كانت جزءاً من بنيته الفنية والمعنوية، كما أن تفسير الرموز والمضامين في شعره ارتبط بالسياق الديني والسياسي للمتلقين في الكوفة والبصرة والحجاز والشام، من هنا نستطيع القول إن شعر الكميت

لـيس نصـاً معـزولاً، بـل هـو نتـاج حـيّ يتـداخل فيـه البعـد الجمـالي بالبعـد المكـاني والاجتمـاعي والسياسـي.

ثالثا- الدراسة التطبيقية

أ- الفضاء الشعري وتباين آفاق التلقي في شعر الكميت

تبين من خلال العرض السابق أن المكان يلعب دورًا محوريًا في بناء المعنى الشعري، إذ يشكّل فضاءً ثقافيًا واجتماعيًا وسياسيًا يؤثر في اختيار الموضوعات، وتوظيف الرموز، وصياغة المواقف الأدبية، كما يحدد كيفية استقبال الشعر وتفسيره من قبل المتلقين، وفي سياق الشعر العربي في العصر الأموي، يبرز هذا التأثير بشكل واضح في تجربة الكميت بن زيد الأسدي، الذي وصل شعره إلى بيئات متنوعة أهمها، الكوفة، البصرة، الشام، والحجاز، حيث اختلف تفاعل الجمهور مع نصوصه بحسب الانتماءات القبلية، والبيئة السياسية، والمستوى الثقافي لكل مدينة.

تهدف هذه الدراسة التطبيقية إلى تحليل العلاقة الجدلية بين الفضاء الشعري والمعنى في شعر الكميت بن زيد الأسدي، اعتمادًا على المقاربة الجغرافية–الثقافية التي تدمج بين التحليل الأدبي والدراسة المكانية–الاجتماعية، وتنطلق هذه المقاربة من فرضية مفادها أن النص الشعري يتشكّل في تفاعلٍ مستمر مع فضائه الثقافي، وأن دلالاته لا تكتمل إلا في ضوء السياقات المكانية التي أنتجته وساهمت في تلقيه.

ومن هذا المنطلق، يسعى البحث إلى دراسة تمثّلات الفضاء الشعري في شعر الكميت، ورصد أثر البيئات المختلفة، في تشكيل رموزه وصوره وتوجيه خطابه، كما يحلل تباين طرائق التلقي باختلاف الفضاءات الثقافية والاجتماعية، مبرزًا كيف استثمر الشاعر الخصائص الرمزية لكل بيئة لإيصال معانيه السياسية والدينية، وكيف أسهم الفضاء الشعري في تحديد أفق التلقي والتأويل، وبهذا تبيّن الدراسة أنّ الفضاء الشعري في شعر الكميت ليس إطارًا جغرافيًا محايدًا، بل بنية ثقافية ودلالية فاعلة أسهمت في إنتاج المعنى الشعري وصياغة الوعي الجمعي في العصر الأموي.

أولاً: الكوفة – التلقي الشيعي المتحمس

تلقى الشيعة في الكوفة شعر الكميت بوصفه نصًا حاملاً للمشروعية الدينية، لذا اعتمد الشاعر في كثير من أبياته على الاستشهاد بالقرآن والحديث النبوي، والربط بين سيرة الإمام علي وآل بيت النبوة (عليهم السلام) وبين المبدأ الشرعي للخلافة، وهذا منح شعره سلطة روحية جعلت المتلقي الشيعي يتفاعل معه بوصفه خطابًا مؤيّدًا للعقيدة لا مجرد إبداع أدبي، وأبرز ما يدل على انتماء الكميت وتوجهه السياسي قصائده الهاشميات، التي يقرّر فيها حقَّ الإمام علي (عليه السلام) بالخلافة، فيقول، مشيراً إلى بيعة غدير خم:[٣٣]

وأصفَاهُ النَّبِيُّ على اختِيَارٍ* بِمَا أعيَى الرُّفُوضَ له المُذِيعَا**
وَيَومَ الدَّوحِ دَوحِ غَدِيرِ خُمٍّ * أبَانَ لهُ الوِلاَيَةَ لو أُطِيعَا**
ولكِنَّ الرِّجالَ تَبَايَعُوهَا * فَلَم أرَ مِثلَهَا خَطَرَاً مَبِيعَا**

تجسد هذه الأبيات من شعر الكميت بن زيد الأسدي اهتمام الشاعر بالبعد السياسي والمذهبي، ولاسيما فيما يتعلق بولاية الإمام علي (عليه السلام) والخلافة، عبر الإشارة إلى حادثة بيعة غدير خم، فشيعة الكوفة كانوا شديدي التلقي لكل إشارة إلى مظلومية الإمام علي وآل البيت (عليهم السلام) ، فيقرؤون شعر الكميت بوصفه إدانة للسلطة التي استحوذت على الحكم، فهو شعر احتجاجي معارض، يتجاوز الوصف العاطفي إلى كونه شهادة شعرية على عدم مشروعية السلطة القائمة، ويستدعي من المتلقي الكوفي قراءة هذه الأبيات في سياق بيئته السياسية والاجتماعية التي تتميز بالوعي المذهبي والانتماء لآل بيت النبوة.

ومن منظور علاقة التلقي بالمكان، فإن أهل الكوفة يشكلون جمهورًا محددًا متأثرًا بالبعد السياسي والمذهبي للمدينة، فالكوفة كانت مركزًا للتيارات الموالية لأهل البيت (عليهم السلام) ومعقلًا للمعارضة السياسية للأمويين، ما جعلهم أكثر إدراكًا للمعاني التي يوظفها الكميت في شعره، من هذا المنطلق، يمكن القول إن المكان (الكوفة) لم يكن مجرد إطار جغرافي، بل كان محددًا لطريقة استقبال الشعر وفهم معانيه؛ فقد وفرت البيئة السياسية والاجتماعية للمدينة وعيًا بمضمون الحوادث التاريخية والرموز الدينية، ما جعل المتلقين قادرين على إدراك الرسائل السياسية والمذهبية ضمن سياقهم المحلي، وبذلك يغدو الشعر وسيلة تتجاوز حدود التعبير الفني ليؤدي دورًا في توجيه الوعي الجماعي وفهم التاريخ والسياسة من منظور آل البيت، بما يعكس الترابط بين المكان والمعنى الشعري.

كما وجدت شيعة الكوفة في شعر الكميت تعبيرًا صادقًا عن معاناتهم التاريخية وإحساسهم بالخُذلان بعد واقعة كربلاء وما تلاها، فشكّلت قصائده متنفسًا عاطفيًا يعزز من هويتهم الجمعية، ويُجسّد ولاءهم لآل البيت، مما جعل عملية التلقي تتميز بالحماسة والانفعال القوي، يقول الكميت: [٣٤]

يُحَلِّئنَ عن ماءِ الفُراتِ وظِلّه * حُسَيناً ولم يُشهَر عَلَيهنَّ مُنصُلُ**

سِوَى عُصبَةٍ فيهم حَبِيبٌ مُعَفَّرٌ* قَضَى نَحبَهُ والكَاهِلِيُّ المُزَمَّلُ**

كأنَّ حُسَيناً والبَهَالِيلَ حَولَه * لأَسيَافِهِم ما يَختَلِي المُتَبقِّلُ**

فلَم أرَ مَخذُولاً أَجَلَّ مُصِيبَةً * وَأوجَبَ منه نُصرَةً حَينَ يُخذَلُ**

تُظهر هذه الأبيات بجلاء طبيعة التلقي الشيعي في الكوفة بعد فاجعة كربلاء، إذ لم يتعامل المتلقي مع النص بوصفه مجرّد رثاء للإمام الحسين (عليه السلام)، بل بوصفه خطابًا يحمّل الشيعة مسؤولية تاريخية وأخلاقية تجاه ما جرى، فالإشارة إلى حرمان الحسين وأهل بيته من ماء الفرات على مرأى من أنصاره، تُقرأ في الوعي الجمعي الكوفي بوصفه رمزا للخُذلان الجماعي وخيانة العهد، كما أن تصوير الإمام (عليه السلام) وأصحابه في مواجهة الموت ببطولة، يقابله تذكير بضعف موقف شيعة الكوفة الذين امتلكوا القدرة على النصرة لكنهم أحجموا عن ذلك، ومن هذا المنظور، فإن شعر الكميت لا يُستقبل في الكوفة

على أنه تعبير عاطفي فحسب، بل يُؤوَّل بوصفه وثيقة احتجاج سياسي ودعوة دينية للخروج على الحكم الأموي، حيث تتحوّل المأساة إلى حافز للتعبئة والاستنهاض: [٣٥]

فَتلك وِلاةُ السَوءِ قد طالَ ملكُهم * فحَتَّامَ حَتَّامَ العَنَاءُ المُطَوَّلُ**

وبهذا المعنى شكّلت قصائد الكميت متنفسًا عاطفيًا يعزز من هويتهم الجمعية، إذ ساعدت على إعادة إنتاج الذاكرة الجماعية للشيعة في الكوفة وربطها بمفهوم الواجب الديني والسياسي المتمثل في نصرة آل البيت (عليهم السلام).

ثانياً: البصرة – التلقي النقدي اللغوي

عندما وصل شعر الكميت إلى البيئة البصرية، برز اختلاف واضح في طرائق التلقي مقارنة بما كان عليه في الكوفة؛ إذ تراجع الاهتمام بالبعد السياسي لصالح التركيز على الجوانب اللغوية والبيانية، ويُظهر هذا التحول طبيعة الذائقة الثقافية في البصرة، التي اتسمت بعنايتها بالتحليل اللغوي والنقدي، فاستقبلت شعر الكميت من منظور فصاحته وبنيته الأسلوبية، أكثر من ارتباطه بمواقفه السياسية أو انتماءاته المذهبية، وعلى سبيل المثال، البيت الذي يقول فيه: [٣٦]

تُنَفِّض بُرْدَيَ أمّ عوف ولم تطِر* لنا بارق بخ للوعيد وللرَّهبِ**

كان المتلقي البصري يفسره ضمن تقاليد الفصاحة والنقد، فيسجلون له قوة السبك وجودة الصياغة، أكثر من اهتمامهم بموقفه السياسي، وقد أشار الجاحظ إلى أن البصريين كانوا يروون شعر الكميت في مجالس البيان، ويستشهدون به على جودة الأسلوب[٣٧]، ومن ذلك أيضا:[٣٨]

يَأوي إلى مَجلسٍ بادٍ مكارمُهُمْ * لا مُطمعِي ظالمٍ فِيْهِمْ ولا ظُلُمِ**

شمّ مهاوين أبدان الجزورمخا * ميص العشيَّات لاخُورولا قُزُمِ**

فالمتلقي البصري يُقدّم تحليله بالاعتماد على أصول الاشتقاق والمعنى المعجمي والإعراب، بعيدًا عن البعد العقدي أو السياسي الذي كان يُلحقه الكوفيون بالنصوص، وهي من الأبيات التي استشهد بها سيبويه على (مهاوين) جمع مهوان مبالغة من (مهين)، وهو من إعمال جمع صيغة المبالغة إعمال الواحد[٣٩].

ثالثاً: الشام – التلقي الرسمي الحذر

أما الشام حيث كانت عاصمة الدولة الأموية، كان تلقّي شعر الكميت مختلفًا تمامًا، إذ كان يُنظر إلى شعره في "الهاشميات" بعين الريبة، لأنه يمثّل موقفًا معارضًا، ومن ذلك قوله:[٤٠]

بِمَرضيٍ السّياسةِ هاشِميّ * يَكُونُ حَياً لأمّتهِ رَبِيْعا**

هذا البيت تحديدًا كان يثير انقسامًا في التلقي؛ فهو عند الجمهور الشيعي في الكوفة والحجاز رمزٌ للوصية لعلي بن أبي طالب (عليه السلام)، بينما في الشام قد يُقرأ على أنه بيت مشبوه سياسيًا يلمّح إلى الشرعية العلوية، ولهذا كان يُتداول في نطاق محدود، ومن ذلك أيضا قول الشاعر:[٤١]

وَقَالُوا وَرِثنَاهَا أبَأنا وأُمَّنَا *** وَمَا وَرَّثَتهُم ذَاكَ وَلاَ أبُ

يَرَونَ لَهُم فَضلاً عَلَى النَّاسِ وَاجِباً *** سَفَاهاً وَحَقُّ الهَاشِمِيينَ أوجَبُ

فالمتلقي الأموي الشامي (الذي نشأ في ظل الخطاب الأموي الرسمي)، يقرأ البيتين بوصفهما طعنًا في شرعية الدولة، لذا، فهو يرفض رسالة الشاعر الشعرية؛ إذ أنّ الثقافة السياسية في الشام بُنيت على تمجيد بني أمية والاعتراف بفضلهم في الفتوحات والإدارة، ومن ثم وظيفة النص هنا لدى متلقي الشام الأموي ليست الإقناع، بل يُستقبل بوصفه خطابا معارضا ومحرضا على سياسة الدولة الرسمية، ومع ذلك حين مدح الكميت بعض خلفاء بني أمية، قوبل شعره في الشام بالترحيب والإعجاب الفني.

رابعاً: الحجاز – التلقي الديني والقدسي

في مكة والمدينة، حيث الحرم الشريف ومجالس العلماء من الصحابة والتابعين، كان شعر الكميت يُقرأ بروح مختلفة، فقد حمل البعد الديني وزناً أكبر، ولاسيما عند ذكره لآل البيت ومكانتهم، ومن أبياته في مدحهم:[٤٢]

إلَيكُم ذَوِي آلِ النَّبِيّ تَطَلَّعَت *** نَوَازِعُ من قَلبِي ظِماءٌ وألبَبُ

كان المتلقي في الحجاز يرى في هذا البيت تعبيرًا عن الولاء لآل البيت بوصفهم ورثة النبوة، فجمع التلقي بين الوجدان الديني والعاطفة السياسية، وقد عدّه بعض علماء الدين هناك نوعًا من الجهاد بالكلمة، ومما يروى أن الإمام الباقر (عليه السلام) دعا للكميت لما أنشد بعض من أبيات هاشمياته[٤٣]، مما يعكس شرعية خاصة مُنحت له في الحجاز، ومن الأبيات التي قرأها الشاعر في حضرة الإمام الباقر (عليه السلام)، قوله:[٤٤]

فَهُمُ شِيعَتِي وَقِسمِي من الأُمَّـ *** ـةِ حَسبِي مِن سَائِرِ الأقسَامِ

أخلَصَ اللهُ لِي هوايَ فما أُغرِ *** قُ نزعاً ولا تَطِيشُ سِهَامِي

فالحجاز في العصر الأموي كان مركز الثقل الهاشمي، وفيه بقايا الأنصار والموالين لأهل البيت، والشيعة في الحجاز لم يكونوا أكثرية سياسية، لكنهم حملوا شعوراً بالتميّز والمظلومية أمام سلطة بني أمية التي اتخذت الشام قاعدة لها، والأبيات عند المتلقي الشيعي الحجازي تُستقبل بوصفها تجسيدا للانتماء إلى جماعة مصطفاة لها شرعية دينية؛ فالنص لا يُقرأ بوصفه مجرد مديح، بل هو بيان هوية يرسّخ الولاء لأهل البيت في مقابل السلطة الأموية، وهو نص تعبوي، يعزز روح الانتماء والثبات لدى الشيعة، ويعيد تشكيل إحساسهم بالذات داخل مجتمع غالباً ما كان يُقصيهم؛ لذا نجد الإمام الباقر(عليه

السلام) حريصا على أن يصحح للشاعر خطابه، فتذكر الرواية أن الإمام قال للكميت: "من لم يغرق النزع لم يبلغ غايته بسهمه، ولكن لو قلت: فقد أغرق نزعا ولا تطيش سهامي"[٤٥].

من خلال الأمثلة السابقة، يتبين أن نص الكميت الواحد كان يكتسب معاني متعددة بحسب موقع تلقيه؛ ففي الكوفة، كان يُقرأ بوصفه وثيقة عقائدية وسياسية، أما في البصرة، فقد كان يُدرس بوصفه نصًا لغويًا وبلاغيًا، وفي الشام التي ترى فيه خطابًا معارضًا مقلقًا للسلطة، وكان يُستقبل بريبة أو يُخفف أثره بالتركيز على المدح، بينما كان يُستقبل في الحجاز، بروح دينية عاطفية تميل إلى الشرعية الروحية. وهذا يؤكد أن النص الشعري ليس له معنى ثابت، فهو فضاء مفتوح لتعدد المعاني، يتشكّل معناه وفق السياق الثقافي والاجتماعي والسياسي للمتلقي، مما يعكس ثراء الشعر العربي وقدرته على التكيّف مع اختلاف البيئات الثقافية.

ب- تأثير الفضاء المكاني وثقافة المدن في أسلوب الكميت الشعري

يمثل شعر الكميت بن زيد الأسدي تجربة متميزة في تاريخ الشعر الأموي؛ إذ جمع بين الفصاحة اللغوية والالتزام السياسي، وبين العمق الديني والجرأة الفكرية، وإذا كان الفضاء المكاني قد ترك أثرًا واضحًا على مضامين شعره، فإن الثقافة المحلية للمدن هي التي صاغت أسلوبه الفني وحددت تقنياته الشعرية، فالثقافة ليست سياق خارجي يحيط بالنص، بل هي عنصرٌ مُنتِج للأسلوب، حيث تتجسد في البنية الإيقاعية، والصور البلاغية، وطريقة بناء الحجاج، والوسائل الرمزية التي يوظفها الشاعر لنقل رسائله.

ومن هنا سنحاول بيان كيف ساهمت البيئات الثقافية التي عاش فيها الكميت أو التي سعى أن يصلها شعره (الكوفة، البصرة، الشام، الحجاز) في تكوين أسلوبه الشعري، وتوجيه رسائله السياسية والدينية والاجتماعية.
١-الكوفة – ثقافة الحجاج الجدلي واستخدام الرمز والإيحاء

لقد انعكست الثقافة المحلية في الكوفة على أسلوب الكميت وتقنياته الفنية بصورة واضحة، فأضفت على شعره طابعًا جدليًا ورمزيًا في آنٍ واحد، ويُعدّ الحِجاج، بوصفه بناءً لغويًا يعتمد على تنظيم الخطاب وفق منطق البرهان والإقناع، واستدعاء الشواهد لتثبيت الرأي، سمةً أسلوبية أصيلة في شعر الكميت. ويرتبط هذا حضور الحِجاج بالفضاء الكوفي الذي تميز بنشاط فكري واسع ومناظرات مذهبية وسياسية مكثفة، مما جعل اللغة في هذا الوسط أداةً للجدل والتأويل أكثر منها وسيلة للبيان الخالص، ومن هنا، جاءت قصائد الكميت ذات نَفَسٍ طويل وإيقاعٍ تفسيري متدرّج، تتوالى فيها الحجج والبراهين داخل بناءٍ شعري يوازن بين الإقناع العقلي والتكثيف الرمزي، بما يعكس تفاعل الشاعر مع المناخ الثقافي الجدلي الذي شكّل ملامح الوعي في الكوفة الأموية.

وبهذا المعنى، لا يغدو الحِجاج في شعر الكميت مجرد تقنية بلاغية، بل يتجلى بوصفه أثرا مكانيّا وثقافيّا متجذرا في بيئة الكوفة، التي حوّلت الجدل إلى بنية فكرية أسهمت في تشكيل المعنى الشعري وتوجيه طرائق تلقيه، ففي قول الكميت:[٤٦]

فَقُل لِلذي في ظِلِّ عَميَاءَ جَونةٍ * يَرى الجَورَعَدلاً أينَ تَذهَب**

بِأيِّ كِتَابٍ أَم بِأيَّةِ سُنَّةٍ * تَرَى حُبَّهُم عَاراً عَلَيَّ وتَحسَبُ**

أَأَسلَمُ ما تَأتِي بِهِ من عَدَاوَةٍ * وَبُغضٍ لَهُم لاَجَيرِبَل هو أشجَبُ**

سَتُقرَعُ مِنهَا سِنُّ خَزيَانَ نَادِمٍ * إِذَا اليَومُ ضَمَّ النَّاكِثِينَ العَصَبصَبُ**

فَمَا لِيَ إلاّ آلَ أحمدَ شيعةٌ * وَمَا لِيَ إلاَّ مَشعَبَ الحَقِّ مَشعَبُ**

لا يكتفي الكميت هنا بوصف الظلم والجور، بل يستعرض الحجج بالتفصيل ويبرز تناقضات الخصوم عبر أسلوب استفهامي وتكراري يربط السبب بالنتيجة: (فَقُل لِلذي في ظِلِّ عَميَاءَ جَونةٍ...) (بِأيِّ كِتَابٍ أَم بِأيَّةِ سُنَّةٍ...) (سَتُقرَعُ مِنهَا سِنُّ خَزيَانَ نَادِمٍ... إِذَا اليَومُ ضَمَّ النَّاكِثِينَ العَصَبصَبُ)، كما يعكس البيت الأخير ولاءه لأهل البيت وارتباطه بالحق: (فَمَا لِيَ إلاّ آلَ أحمدَ شيعةٌ... وَمَا لِيَ إلاَّ مَشعَبَ الحَقِّ مَشعَبُ)، ويُظهر هذا المزج بين الجدل البرهاني والبيان البلاغي، وكيف استفاد الكميت من الثقافة الكوفية في صياغة شعر طويل وجدلٍ متماسك، يربط بين الموقف السياسي والوجدان الجمعي للمتلقين. كما أن الطابع القبلي في الكوفة (تداخل قبائل اليمن مع الموالي) جعله يكثر من أسلوب المزج بين الجزالة القديمة والحِجاج الجديد، فظهر في شعر الكميت الحرص على جزالة الألفاظ مع بناء منطقي برهاني يناسب ثقافة الجدل عند الكوفيين، يقول الكميت:[٤٧]

وغابَ نبيُّ الله عنا وفقدُهُ * على الناسِ رُزْءٌ ما هناكَ مُجَلّلُ**

فلمْ أرَمخْذولا أَجلَّ مُصِيبةٌ * وأوجب منهُ نُصْرةً حين يُخْذلُ**

هنا يتجلّى تميّز الكميت في الجمع بين الجزالة الموروثة والحجاج الشعري الجديد، إذ اعتمد على ألفاظ قوية ذات طابع تقليدي مثل (رزء) و(مجلل) التي تُبرز جزالة الأسلوب وعمق الرثاء على الطريقة القديمة، غير أنّه لم يقف عند حدّ التصوير الوجداني، بل انتقل إلى بناء خطاب برهاني حين قرّر أن فقد النبي(عليه الصلاة والسلام) يُلزم بالنصرة: (وأوجب منه نصرة حين يُخذل)، وبهذا يتحوّل الرثاء من مجرّد تعبير عاطفي إلى خطاب جدلي موجّه، يزاوج بين فصاحة اللفظ وقوة الحجة، وهو ما يعكس أثر الثقافة الكوفية التي كانت تقدّر في الشعر الجمع بين البيان البلاغي والوظيفة الجدلية ذات الطابع السياسي والاجتماعي.

من جهة أخرى، فإن حضور الرمز والإيحاء في شعره يعكس توازنًا بين الإفصاح والكتمان، حيث كان المتلقي الكوفي يدرك دلالاته العميقة من دون حاجة إلى تصريح مباشر، ومن أوضح الشواهد قوله:[٤٨]

يَحُلِّئن عن ماء الفرات وظلّه * حسينًا ولم يُشهَرْ عليهنّ منصلُ**

إذ يكتفي بذكر الفرات رمزًا، ليشير إلى مأساة كربلاء وحصار الحسين (عليه السلام) وأصحابه عن الماء، وهو رمز مكاني محمَّل بذاكرة مأساوية خاصة يفهمها جمهور الكوفة تلقائيًا.

وبذلك، فإن الجمع بين الحجاج الجدلي والإيحاء الرمزي لم يكن مجرد خيار فني للكميت، بل كان وسيلة مقصودة تستجيب لذائقة المتلقي الكوفي؛ فالجمهور في الكوفة – بحكم خبرته في الجدل وبحكم انخراطه في الصراع السياسي والمذهبي – كان ينجذب إلى النص الطويل الذي يعرض الحجة تفصيلًا، كما كان يتفاعل بوعي وجداني مع الرموز المشحونة بالدلالات التاريخية والدينية، الأمر الذي جعل قصائد الكميت تشكّل نصوصًا مزدوجة الوظيفة: إقناعية من جهة، وإيحائية عاطفية من جهة أخرى.

٢-البصرة – ثقافة اللغة والبلاغة

شكّلت البصرة بما تمتعت به من بيئة علمية ولغوية مشغولة بالنحو والفقه والكلام إطارًا ثقافيًا انعكس بعمق في شعر الكميت، فأسلوبه الشعري يكشف عن أثر مباشر لهذه البيئة التي عُرفت بدقة المعايير اللغوية وصرامة النقد البلاغي، وقد بدا هذا التأثير في سمتين أساسيتين: الجزالة اللغوية والدقة التعبيرية من جهة، والتوظيف الفني للمجاز والرمز من جهة أخرى؛ فقد كان شعره يُستشهد به في كتب النحو واللغة[٤٩]، مما يدل على خضوعه لمقاييس المدرسة البصرية في فصاحتها وانضباطها، ويظهر ذلك في أبياته: [٥٠]

لنا راعيا سوء مضيعان منهما * أبو جعدة منهم وعرفاء جبأل**

أتت غنمًا ضاعت وغاب رعاؤها * لها فرعل فيها شريك يفرعل**

ولوولي الهوج الشوائح بالذي * ولينا به ما دعدع المترحل**

إذ تتجلى في هذه الأبيات جزالة المفردات (راعيا، مضيعان، فرعل) ودقتها الصوتية، إلى جانب الصور المجازية المركبة التي ترسم مشهد الضياع والاضطراب برمزية عميقة؛ فالضياع الظاهر للرعية يُحيل إلى واقع سياسي مضطرب، والاضطراب الموصوف في البيت الثالث يتحول إلى رمز للفوضى السياسية دون تصريح مباشر، بما يعكس الحس البلاغي الذي يتوقعه متلقي البصرة المشبع بثقافة البيان، ويُلاحظ الأثر نفسه في بائيته الشهيرة:[٥١]

إذا ادلَمَّسَت ظَلماءُ أمرَينِ جِندِسٌ * فَبَدرٌلهم فيها مضيء وكوكبُ**

وإن هاج نبتُ العلم في الناس لم تزل * لهم تلعَةٌ خضراءُ منهم ومذنبُ**

يجعل الكميت من أهل البيت قيمة متعالية تجمع بين الهداية والنماء، إذ يوظّف الاستعارة الكونية (البدر، الكوكب، النبت، التلعة الخضراء) ليصوغ صورة رمزية تمزج بين الإشراق الروحي والخصب العقلي، ونجد أن الاستعارة قد أكسبت البيتين "بعدا جماليا وفنيا، وضّح الفكرة التي أراد لها الكميت أن تصل إلى المتلقي لتؤثر فيه، وتجعله يتفاعل معه، فكانت بليغة التأثير، قوية التصوير، فزادت بذلك المعنى عمقا"[٥٢].

وهكذا تتجلّى البراعة البلاغية في شعر الكميت في قدرته على المواءمة بين الجدل الفكري والبناء الفني، حيث تمتزج الحجة العقلية بالصورة الشعرية في نسيج لغوي متين، وقد تأثر هذا الأسلوب بعمق الثقافة البصرية ذات النزعة العقلية واللغوية الدقيقة، التي عُرفت بازدهار علوم النحو والفقه والبيان، وأسهمت هذه البيئة في صقل أدوات الكميت الفنية، فزوّدته بلغةٍ محكمة وصورٍ بلاغيةٍ مركبةٍ تتعدد مستويات قراءتها، وجعلت من شعره نصًّا يجمع بين الجمال الفني والدقة الفكرية، لذا غدا شعره موضع اهتمام النحاة والبلاغيين، إذ يعكس تداخلاً واعيًا بين المعرفة اللغوية والرؤية الجمالية، وبين الشعر بوصفه فنا والجدل بوصفه منهجا فكريا.

٣- الشام – ثقافة البلاط والمديح السياسي

لقد شكّلت الشام، بوصفها مركز السلطة الأموية وفضاء ثقافة البلاط، بيئة شعرية ذات طبيعة خاصة، حيث تداخلت مقتضيات المديح السياسي مع ضرورات الحذر من هيمنة السلطة، وفي هذا السياق، وجد الكميت نفسه أمام معادلة معقدة تجمع في وقت واحد بين المحافظة والالتزام بالمديح التقليدي الذي يقتضي تمجيد الممدوح في نسبه وأخلاقه وأفعاله، وصوت الاعتراض والرمز الموارب الذي يتيح له التعبير غير المباشر عن مواقفه، تظهر هذه السمة المزدوجة في قوله:[٥٣]

كَمْ قالَ قائلكم لعا * لك، عند عَثرته لعاثِرْ**

وغفرْتُمُ لِذَوي الذنو* بِ من الأكابروالأصاغِرْ**

أبني أميّةَ إنّكُمْ * أهلُ الوسائلِ والأوامرْ**

ثقتي لكل مُلمةٍ * وعشيرتي دُونَ العشائِرْ**

القصيدة تبدو للوهلة الأولى مدحًا صريحًا، يتجلى في توظيف التضاد البلاغي (العثرة/الغفران) والتقابل (الأكابر/الأصاغر)، وهو ما يتناسب مع الذائقة الشعرية في بلاط بني أمية، غير أن الإفراط في هذا الثناء، مقرونًا بالرمزية الفنية، يفتح المجال لتأويل آخر؛ إذ يُقرأ المديح هنا بوصفه مديحًا تقياً؛ أي صادرًا عن الخوف أو بدافع درء الأذى، لا عن إعجاب صادق، ويؤكد

البيت الأخير هذه القراءة حين يجعل (الثقة والعشيرة) حائط أمان في مواجهة الملمات، بما يشي بأن الولاء المعلن وسيلة دفاعية أكثر منه موقفًا وجدانيًا.

وعليه، يمكن القول إن أسلوب الكميت في الشام تميز بـ مزج فني بين البلاغة التقليدية والاستراتيجية السياسية المواربة؛ فهو يستثمر أدوات البيان البديعية (التضاد، المقابلة، الإطناب) لإنتاج مديح يتلاءم مع خطاب البلاط، لكنه في الوقت ذاته يوظف المجاز والرمز لتضمين اعتراض ضمني أو رسالة سياسية مشفّرة، وهكذا غدا شعره نصًا متعدد المستويات، يتلقى في البلاط بوصفه مديحا ظاهرا، ويُقرأ عند المتلقي الواعي بوصفه خطابًا نقديًا مستترًا، يعكس أثر بيئة الشام بما حملته من سلطة وهيمنة وحاجة إلى الحذر في التعبير[٥٤].

٤-الحجاز – ثقافة المقدّس والرمزية الدينية

لقد شكّل الحجاز بفضائه الديني ورموزه المقدسة (الكعبة، المدينة، الحج، النسب النبوي) بيئةً بالغة الأثر في تشكيل الأسلوب الرمزي الديني عند الكميت؛ إذ لم يعد المديح عنده مجرد ثناء على الصفات الشخصية أو المآثر القبلية، بل انفتح على أفق القداسة، ليغدو الشعر وسيلة لتأكيد الشرعية الدينية والولاء لأهل البيت، ويتضح ذلك في قوله:[٥٥]

بَني هَاشِمٍ رَهطِ النَّبِيِّ فإنَّنِي * بِهِم ولَهُم أَرضَى مِرَاراً وأغضَبُ**

خَفَضتُ لَهُم مِنّي جَنَاحَي مَوَدَّةٍ * إلى كَنَفٍ عِطفَاهُ أهلٌ وَمَرحَبُ**

في هذين البيتين يظهر أثر البيئة الحجازية في الموضوع والأسلوب معًا: فالموضوع مؤطّر في سياق القدسية النبوية، إذ تتحول الانفعالات الفردية للشاعر (الرضا والغضب) إلى تعبير عن ولاء ديني وأخلاقي، فيما يتجلى البعد البلاغي في استعارة صورة خفض الجناحين رمزًا للتواضع والمودة، و(الكنف) دلالة على العطف والاحتضان الروحي، وهذه الصور لا تُستقى من الخيال الشعري وحده، بل تنهل من مخزون قرآني مباشر، كما في قوله تعالى: "اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ"[٥٦]، وهو ما يجعل النص الشعري مشبعًا بروح النص المقدس، ويُلاحظ الأثر نفسه في قول الكميت:[٥٧]

وَجَدنَا لَكُم فِي آلِ حَامِيمَ آيةً * تَأوَّلَهَا مِنَّا تَقِيٌّ وَمُعرِبُ**

وَفِي غَيرِهَا آياً و آياً تَتَابَعَت * لكم نَصَبٌ فِيهَا لِذِي الشَكِّ مُنصِبُ**

تكشف أبيات الكميت أثر البيئة الحجازية المشبعة بالقداسة والنصوص القرآنية في أسلوبه الشعري؛ إذ يوظف الرمز القرآني (آل حاميم) لتأسيس شرعية دينية لخطابه السياسي، فيجعل الولاء لأهل البيت مؤيداً بالوحي والتأويل الصحيح، ويظهر الأسلوب هنا مشبعاً بالرمزية الدينية والإيقاع القرآني من خلال التكرار (آياً وآياً تتابعت)، بما يعكس طبيعة الثقافة الحجازية التي أعلت من سلطة النص المقدس، فشعر الكميت في هذا السياق لا يكتفي بالجدل السياسي المباشر، بل يتحول

إلى خطاب رمزي/شرعي يستند إلى النصوص المقدسة ويعيد تأويلها، ليؤثر في المتلقي الحجازي الذي كان شديد الارتباط بالقرآن والحديث.

وهكذا، تبرز بيئة الحجاز بما حملته من ثقافة تعظيم للنص القرآني وللنسب النبوي بوصفها مصدرًا لصياغة أسلوب شعري يتأسس على الاقتباس والرمزية الدينية، فالكميت عبر استدعاء هذه الرموز، لم يكن يسعى إلى إضفاء البعد الروحي على مديحه فحسب، بل كان يؤسس لخطاب سياسي شرعي، يجعل الدفاع عن أهل البيت موقفًا دينيًا بقدر ما هو فني، وبذلك أسهمت ثقافة الحجاز في إثراء شعر الكميت بخصائص أسلوبية جديدة تمثلت في مزج الانفعال بالعقيدة، وتحويل البلاغة الشعرية إلى رمزية مقدسة، ومنح القول الشعري قوة شرعية مضاعفة.

٥-جدلية الثقافة والأسلوب – رؤية تركيبية

يتضح من المحاور السابقة أن الفضاء المكاني للمدن وثقافتها المحلية لم يكن مجرد إطار خارجي يحيط بتجربة الكميت، بل كان عاملًا فاعلًا في تكوين أسلوبه الشعري، وصياغة تقنياته الفنية، فكل مدينة أسهمت في إغناء أسلوبه بخصوصياتها الفكرية والرمزية:

-الكوفة: بثقافتها الجدلية والسياسية كوّنت لديه الأسلوب الحجاجي/الخطابي.

-البصرة: بثقافتها اللغوية والنحوية منحته الأسلوب البلاغي/اللغوي.

-الشام: بثقافتها السلطوية والبلاطية فرضت عليه الأسلوب التوازني (مديح/اعتراض).

-الحجاز: بثقافة المقدس والدين أمدته بالأسلوب الرمزي/الديني.

من خلال هذا التفاعل يظهر أن الكميت لم يكن شاعر هوى فردي، بل شاعر ثقافة جماعية؛ وأن المدن بأبعادها الفكرية والدينية والسياسية كانت هي التي رسمت ملامح أسلوبه، وحوّلت نصوصه إلى خطاب متعدد الطبقات يعكس الوعي الجمعي للعصر الأموي، وهكذا يغدو شعر الكميت وثيقة أسلوبية وثقافية في آن واحد، تكشف كيف تداخل المكان بالمعنى، وتجلّت جدلية الثقافة والأسلوب في إنتاج نص شعري يتجاوز حدود الذات الفردية إلى التعبير عن هوية المرحلة وتمثّلاتها الرمزية.

الخاتمة

أظهر البحث أنّ النص عند الكُمَيتِ ليس وحدةً مغلقة، بل هو نص مفتوح على سياقاته، تتغير دلالاته تبعًا لتنوّع الجماهير وتباين المرجعيات الفكرية والسياسية والدينية؛ لذا يُعدّ تلقي شعر الكميت في البيئات المتعددة مدخلًا أساسًا لدراسة أثر الثقافة المحلية والفضاء الاجتماعي والجغرافي في تشكيل المعنى الشعري وإعادة إنتاجه.

كما تبيّن أنّ الكوفة، بما اتسمت به من صراع سياسي محتدم وثقل شيعي واضح، استقبلت شعر الكميت في إطار تعبوي مباشر، إذ غلبت على القراءة النزعة السياسية–الدينية، وعُدّت نصوصه جزءًا من جدل الشرعية بين الأمويين وأهل البيت، أمّا البصرة، بوصفها مركزًا علميًا ولغويًا، فقد استقبلت النص من زاوية أدبية خالصة، حيث ركّز جمهورها على الفصاحة والبنية البلاغية، وتراجع لديهم البعد السياسي، في المقابل، اتّسم تلقي الشعر في الشام بالعداء السياسي، إذ عُدّ خطاب الكميت معارضةً صريحة للسلطة الأموية، فطغى الموقف الأيديولوجي على إدراك قيمته الفنية أو الرمزية، أمّا الحجاز، بفضائه الديني والروحي المرتبط بقداسة الحرم ومقام النبي(عليه الصلاة والسلام)، فقد قدّم قراءة رمزية–روحية، جعلت من شعر الكميت نصًا أخلاقيًا يتصل بالقرب النبوي والبعد القداسي، بعيدًا نسبيًا عن التجاذبات السياسية المباشرة. ومن خلال هذه المقارنة بين البيئات الأربع، يتضح أنّ النص الشعري عند الكميت كان نصًا متعدّد القراءات، يعكس دينامية التلقي أكثر مما يعكس ثبات الدلالة، فالنص ذاته كان يُقرأ في الكوفة بوصفه خطابًا سياسيًا ثوريًا، وفي البصرة فنًا بلاغيًا، وفي الشام خصومة سياسية، وفي الحجاز وعظًا روحيًا، وهذا التباين يبرهن أنّ المكان والثقافة المحلية ليسا مجرد خلفية محايدة، بل عنصران فاعلان في تشكيل المعنى وتحديد وظيفة الشعر في المجتمع.

إنّ دراسة تلقي شعر الكميت تكشف عن أن النصوص الأدبية الكبرى لا تنفصل عن بيئاتها، بل تتفاعل معها على نحو جدلي، ما يمنحها القدرة على التجدّد والتلوّن بتنوّع الفضاءات والجماهير، ومن ثمّ فإن شعر الكميت لا يُعدّ شاهدًا على تجربة فردية فحسب، بل يمثّل انموذجًا على الجدل الحي بين القول الشعري والفضاء الثقافي والاجتماعي والسياسي، وهو ما يجعل تلقيه في هذه البيئات المختلفة شاهدًا حيًا على طاقة الشعر في تمثّل التحولات وصياغة المعنى وفق شروط المكان والزمان والجمهور.

المصادر

١-القران الكريم

٢- إشكالية المكان في النص الأدبي، دراسة نقدية، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد، ط١ ١٩٨٦ م.

٣-الإعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٧، ٢٠٠٧م

٤-الأغاني، لأبي فرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت٣٥٦هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس وآخرون، دار صادر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٢م.

٥- بناء فضاء المكان في القصة العربية القصيرة، محمد السيد إسماعيل، دائرة الثقافة والاعلام، دولة الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٢م.

٦-البيان والتبيين، أبو عمرو بن عثمان الجاحظ(ت٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٩٩٨م.

٧-تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط٧، د. ت.

٨- التطور والتجديد في الشعر الأموي، د. شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف بمصر، ط٨، د. ت.

٩-جامع الرواة، محمد بن علي الغروي الحائري الردبيلي (ت١١٦١هـ)، مكتبة المرعشي-قم، ١٤٦٣هـ

١٠- خزانة الأدب وغاية الأرب: تقي الدين أبي بكر علي المعروف بابن حجة الحموي، (ت٨٣٧هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت.

١١-دراسات في المدن العربية الإسلامية، د. عبد الجبار ناجي، مطبعة جامعة البصرة، البصرة ١٩٨٦م.
١٢-ديوان الكميت بن زيد الأسدي، جمع وشرح وتحقيق: د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط١ ٢٠٠٠م.
١٣-الرواية والمكان، دراسة في فن الرواية العراقية، ياسين النصير، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠م.
١٤-شرح هاشميات الكميت بن زيد الأسدي، تفسير أبي رياش أحمد بن إبراهيم القيسي، تحقيق: د. داود سلوم، د. نوري حمودي القيسي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.
١٥-الشعر والشعراء، لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة: دار المعارف بمصر، ط٢، د. ت.
١٦-فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٩١م.
١٧-في البنيوية التكوينية (دراسة في منهج لوسيان غولدمان)، جمال شحيد، دار ابن رشد للطباعة والنشر، ط١ ١٩٨٢م.
١٨-قضايا الفلسفة العامة ومباحثها، علي عبد المعطي محمد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ١٩٨٣م.
١٩-كتاب سيبويه، أبو البشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت ١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، د. ت.
٢٠-المدحة الهاشمية في بائية الكميت، دراسة اسلوبية، حدة شيبان، رسالة ماجستير، جامعة العربي بن مهيدي، الجزائر، ٢٠١٦م.
٢١-معجم البلدان، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله البغدادي الحموي (ت ٦٢٦هـ)، مطبعة دار الكتب العربية، بيروت، ١٩٧٩م.
٢٢-المقتضب، أبو العباس المبرد(ت٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٩م.
٢٣-الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني (ت ٣٨٤هـ)، تحقيق وتقديم: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
٢٤-النقد الروائي والايديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص، حميد لحميداني، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠م.

الهوامش

١-من هذه الدراسات -على سبيل المثال-: التطور والتجديد في الشعر الأموي للدكتور شوقي ضيف، في الشعر الإسلامي والأموي للدكتور عبد القادر القط، أدب السياسة في العصر الأموي لأحمد الحوفي، لغة الشعر في هاشميات الكميت لرزاق عبد الأمير الطيار، الكميت بن زيد الأسدي – الشاعر السياسي لمأمون بن محيي الدين الجنّان، الكميت بن زيد الأسدي في نظر النقاد القدامى والمحدثين لعباس عبيد الساعدي، المدحة الهاشمية في بائية الكميت: دراسة أسلوبية، لحدة شيبان (رسالة ماجستير)، الحقول الدلالية في شعر الكميت بن زيد الأسدي لشيماء محمد عبيد(رسالة ماجستير)، المنطق الحجاجي والحجاج المنطقي في هاشميات الكميت بن زيد الأسدي لسعدوني العايش(بحث)، أثر مبدأ الالتزام في هاشميات الكميت بن زيد الأسدي لعزة محمد محمد أبو النجاة (بحث)،.... وغيرها.

٢-النقد الروائي والايديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص، حميد لحميداني، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠م، ص٦٨.

٣- في البنيوية التكوينية (دراسة في منهج لوسيان غولدمان)، جمال شحيد، دار ابن رشد للطباعة والنشر، ط١ ١٩٨٢م، ص: ٣٨.

٤-ينظر، قضايا الفلسفة العامة ومباحثها، علي عبد المعطي محمد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ١٩٨٣م، ص: ١٢٧.

٥-الرواية والمكان، دراسة في فن الرواية العراقية، ياسين النصير، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠م، ج٢: ١٦.

٦- بناء فضاء المكان في القصة العربية القصيرة، محمد السيد إسماعيل، دائرة الثقافة والاعلام، دولة الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٢م، ص: ٨٧.

٧- ينظر، إشكالية المكان في النص الأدبي، دراسة نقدية، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد، ط١ ١٩٨٦، ص: ١٦.

٨- ينظر، حرص حماد الراوية على نقل ورواية شعر الكميت، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني (ت ٣٨٤هـ)، تحقيق وتقديم: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ص: ٢٣٢.

٩-ينظر -على سبيل المثال- ما ذكره أبو عكرمة الضبي عن شعر الكميت، الإعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٧، ٢٠٠٧م، ج٥، ص:٢٣٣.

١٠- ينظر، كتاب الأغاني، لأبي فرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت٣٥٦هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس وآخرون، دار صادر- بيروت، ط٣، ٢٠٠٢م، ج١٧، ص: ٥-٦.

١١- ينظر، ما ذكره الأصفهاني عن اجتماع الكميت مع الشعراء والرواة، ومنهم حماد الراوية في مسجد الكوفة يتذاكرون أشعار العرب وأيامهم، الأغاني، ج١٧، ص:٦.

١٢- ينظر، التطور والتجديد، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط٨، ص: ٢٦٨.

١٣-ينظر، كتاب الأغاني، ج١٧، ص: ٩-١٨.

١٤- ينظر، السابق، م١٧، ص: ١٠.

١٥- ينظر، شرح هاشميات الكميت بن زيد الأسدي، تفسير أبي رياش أحمد بن إبراهيم القيسي، تحقيق: د. داود سلوم، د. نوري حمودي القيسي،عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م، ص: ٣٧-٣٨.

١٦- ينظر، تردد الشاعر على الحجاز واتصال بأئمة آل البيت، لاسيما الإمام محمد الباقر(عليه السلام)، الأغاني، ج١٧، ص: ٢٦.

١٧- ينظر، الشعر والشعراء لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة: دار المعارف بمصر، ط٢، د ت، ص: ج٢، ص:٥٨١.

١٨- ينظر -على سبيل المثال- تذاكر شعر الكميت من قبل أدباء البصرة، الموشح، ص: ٢٣٣.

١٩- معجم البلدان، شهاب الدين عبد الله ياقوت بن عبد الله البغدادي الحموي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ج٤، ص: ٤٩٠.

٢٠- ينظر، دراسات في المدن العربية الإسلامية، د. عبد الجبار ناجي، مطبعة جامعة البصرة، البصرة ١٩٨٦، ص: ١٠٢.

٢١- ينظر، فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩ هـ)، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٩١م، ص: ٣٤١.

٢٢- ينظر، الموشح، ص: ٢٣٣.

٢٣- ينظر، معجم البلدان، ج٢، ص: ٤٦٥.

٢٤- ينظر، التطور والتجديد، ص: ٤٧.

٢٥- ينظر، الأغاني، للأصفهاني، ج١٧، ص: ١١-١٥.

٢٦- ينظر، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط٧، ص: ١٤٥.

٢٧- ينظر، الأغاني، ج١٧، ص: ٢١-٢٢، ٢٦-.2727

28 - ينظر، التطور والتجديد، ص: ٢٦٩.

٢٩- الأغاني، للأصفهاني، ج١٧، ص:٥.

٣٠- ينظر، السابق، ج١٧، ص: ٣٠-٣١.

٣١- ينظر، التطور والتجديد، ص: ٢٩٠.

٣٢- ينظر، خزانة الأدب وغاية الأرب: تقي الدين أبي بكر علي المعروف بابن حجة الحموي، (ت٨٣٧هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج١، ص:١٤٥.

٣٣- شرح هاشميات الكميت بن زيد الأسدي، ص: ١٩٧.

٣٤- السابق، ص: ١٦٥-١٦٧.

٣٥- السابق، ص: ١٦٠.

٣٦- ديوان الكميت بن زيد الأسدي، جمع وشرح وتحقيق: د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط١ ٢٠٠٠، ص:٨٣.

٣٧- ينظر، البيان والتبين، أبو عمرو بن عثمان الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٩٩٨، ج٢، ص: ٤٥.

٣٨- ديوان الكميت بن زيد الأسدي، ص: ٣٨٧-٣٨٨.

٣٩- ينظر، كتاب سيبويه، أبو البشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت ١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، د. ت، ج١، ص: ١٠٨-١١٤.

٤٠- شرح هاشميات الكميت بن زيد الأسدي، ص: ١٩٩.

٤١- السابق، ص: ٥٩.

٤٢- السابق، ص: ٤٥.

٤٣- ينظر، جامع الرواة، محمد بن علي الغروي الحائري الردبيلي (ت١١٦١هـ)، مكتبة المرعشي-قم، ١٤٦٣هـ، ج٢، ص: ٣٨.

٤٤- شرح هاشميات الكميت بن زيد الأسدي، ص: ٣٧.

٤٥- السابق، ص: ٣٧-٣٨.

٤٦- السابق، ص: ٤٩-٥٠.

٤٧- السابق، ص: ١٦٧.

٤٨- السابق، ص: ١٦٥.

٤٩- ينظر -على سبيل المثال-، المقتضب، أبو العباس المبرد(ت٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٩م، ج١، ص: ١٤٤، ٢٣٨.

٥٠- شرح هاشميات الكميت بن زيد الأسدي، ص: ٢٢٨.

٥١- السابق، ص: ٧٩.

٥٢- المدحة الهاشمية في بائية الكميت، دراسة اسلوبية، حدة شيبان، رسالة ماجستير، جامعة العربي بن مهيدي، الجزائر، ٢٠١٦م، ص ٨٥.

٥٣- ديوان الكميت بن زيد الأسدي، ص: ١٣١.

٥٤- ينظر، قول الكميت عندما سئل عن أحد أبيات هذه القصيدة: "والله ما أردت به إلا الدنيا". الأغاني، ج١٧، ص:٢٧.

٥٥- شرح هاشميات الكميت بن زيد الأسدي، ص: ٤٦-٤٧

٥٦-الإسراء: ٢٤.

٥٧- شرح هاشميات الكميت بن زيد الأسدي، ص: ٥٥-٥٦.